



عمل الطيران الروسي شريكاً في الصراع المسلح إلى جانب النظام السوري، إلا أنه على الرغم من شدة فعالياته في العمليات القتالية، وقدرته العالية على التدمير، وإسقاط عدد أكبر من الضحايا البشرية والمادية، إلا أنه فعلياً لم يستطع أن يغير معادلات الهزيمة والانتصار التي بقيت تتأرجح بين جانبي الصراع المسلح، المحمولين على الدعم الخارجي، سواء لجهة النظام (إيران، روسيا، الميليشيات الطائفية)، أو لجهة المعارضات المسلحة بفضلها ذات التبعات الأيديولوجية والتمويلات الخارجية، أو فصائل الجيش الحر التي توارت بشكل إيجاري تحت ضربات ما تسمى فصائل إسلامية متشددة، طرحت ثمارها المسمومة بحملة اغتيالات واسعة لناشطين سلميين، وقفوا ضد ممارساتهم بكل شجاعة، ومنهم أخيراً الشهيدان رائد الفارس و Hammond جنيد، وكانت عملت على تحجيم دور المعارضة السياسية الوطنية، لتتولى كيانات المعارضات المرتهنة دور الأبواق السياسية لفصائل سلاح الأمر الواقع.

ولكن سقوط طائرتين روسيتين غير وجه الصراع في سوريا، وأعاد توزيع قوى التحالفات، بعد شبه استقرار نحو أربع سنوات متتالية، بين محور إيران الداعم المباشر للنظام، ومعه مليشيات طائفية، يتقدمها حزب الله ومليشيات "فاطميون" و"زينبيون" وغيرها، مقابل فصائل مسلحة محسوبة على "المعارضة"، مدعومة أميركياً وأوروبياً وعربياً، وتدير معظمها تركيا عبر الشمال السوري المفتوح على الحدود السورية بما يقرب من 800 كم، ما هيأ لسقوط الطائرة الروسية بنيران القوات التركية، في نوفمبر/تشرين الثاني 2015، أن تكون البوصلة الجديدة ونقطة التحول في مسار الأحداث في الشمال، وتحديداً في حلب، حيث مركز الصراع على النفوذ بين النظام والمعارضة المسلحة.

كما كان الحال عند الحادثة الثانية بين روسيا وإسرائيل، في 23 سبتمبر/أيلول 2018، والتي أسست لتفاهمات دولية جديدة،

ووسعـت من نفوـذ موسـكو في المـلف السـوري، وقلـصـت من قـدرـة الطـيرـان الإـسـرـائـيلي على استـبـاحة الأـجـواء السـورـية، فـي مقابل استـسلام إـيرـان الصـامت لـمـطـالـب إـسـرـائـيل بالـانـسـحـاب التـدـريـجي من المـنـاطـق الـحدـودـيـة معـها، وـلـاحـقاً لـتـصـريـحـات إـيرـانـية مـهـادـنة لـالمـطـالـب المشـترـكة الإـسـرـائـيلـية الـأـمـيرـكـية، عـلـى الرـغـم من سـرـيان عـقوـبـات الـأخـيرـة عـلـيـها .

وـمع الإـقـرار بـحـجم تـلـك الـمـتـغـيرـات الـكـبـرى، تـبـدو خـرـيـطة الـحـرـاك الـمـيدـانـي في سـورـية ضـبابـية مع تـحرـيك القـوى المـتـصـارـعة عـلـى سـورـية مـوـاقـعـها بيـن فـيـنـة وأـخـرـى، عـلـى الرـغـم من الـهـدوـء النـسـبـي الـذـي أـعـقـب الإـعلـان عن إـنـهـاء الـهـدـنـة الـأـمـيرـكـية الـرـوـسـية (منـطـقـة خـفـضـ التـصـعيد) فيـ درـعا، عـبـر قـصـفـ النـظـام وـخـرـقـهـ لهاـ، وـنـجـاحـ مـوسـكوـ بـعـد صـفـقةـ تـسوـيـةـ جـديـدةـ معـ المـسـلـحـينـ الـمـعـارـضـينـ، تمـ بـمـوجـبـهاـ تـسـليـمـ سـلاحـ الـفـصـائـلـ، وـإـعادـةـ تـوزـيعـ الـأـدـوارـ عـلـىـ المـسـلـحـينـ الـمـعـارـضـينـ للـنـظـامـ، بيـنـ دـاعـمـيـنـ الـجـنـاحـ الـعـسـكـريـ الـرـوـسـيـ وـمـؤـيـدـيـنـ لـلـجـيـشـ السـورـيـ تـحـتـ الـوـصـاـيـةـ الـإـيرـانـيـةـ، وـأـخـيرـاًـ فـتحـ مـعـبرـ نـصـيبـ الـحـدـودـيـ معـ الـأـرـدنـ الـذـيـ بـداـ كـانـهـ خـاتـمـةـ لـمـاـ سـمـيتـ مـرـحلـةـ الـمـنـاطـقـ الـمـحـرـرـةـ فيـ جـنـوبـ سـورـيةـ عـمـومـاًـ .

وـإـذـاـ كـانـ لاـ بـدـ مـنـ القـولـ إنـ تـرـكـياـ هيـ مـرـكـزـ الثـقلـ شـمـالـاًـ، فإـنهـ مـنـذـ دـخـولـ الـصـرـاعـ إـلـىـ مـرـحلـةـ تـشكـيلـ التـحـالـفـاتـ الـدـولـيـةـ فيـ مـحـورـيـنـ أـسـاسـيـنـ: الـرـوـسـيـ، وـمـقـابـلـهـ عـلـىـ التـضـادـ الـمـحـورـ الـأـمـيرـكـيـ، بـدـتـ تـرـكـياـ فـيـ عـيـنـ الـعـاصـفـةـ أـكـثـرـ مـنـ غـيرـهاـ مـنـ الدـوـلـ الـفـاعـلـةـ فـيـ الـمـلـفـ السـورـيـ عـسـكـريـاًـ وـسـيـاسـيـاًـ، بـسـبـبـ تـذـبذـبـ الـمـوقـفـ الـأـمـيرـكـيـ مـنـهـاـ تـارـيـخـاـ، وـتـقـارـبـ مـصالـحـهاـ مـعـ مـحـورـ رـوـسـياـ تـارـيـخـاـ، وـانـقـسامـهاـ عـلـىـ نـفـسـهاـ فـيـ تـوزـيعـ أـوـلـويـاتـهاـ بـيـنـ الـأـمـنـيـنـ، الـقـومـيـ وـالـاقـتصـاديـ، ماـ جـعـلـهاـ مـرـنـةـ فـيـ التـعـاطـيـ مـعـ مـوسـكوـ، وـحـذـرـةـ مـعـ واـشـنـطـنـ، وـمـتـأـهـبـهـ ضـدـ مـعـارـضـيهـ فـيـ الدـاخـلـ بـعـدـ مـحاـوـلـةـ انـقلـابـ 15ـ يـولـيوـ/ـ تمـوزـ 2016ـ، وـمـتـقـلـبةـ فـيـ عـلـاقـاتـهاـ مـعـ أـورـوباـ، وـهـوـ مـاـ يـجـعـلـ قـرـاءـ الـأـحـدـاثـ الـلـاحـقـةـ تـتـمـيـزـ بـمـنـعـطفـيـنـ أـسـاسـيـنـ:ـ

أـولـهـماـ، مـاـ بـعـدـ إـسـقـاطـ الطـائـرـةـ الـرـوـسـيـةـ فـيـ الـلـاذـقـيـةـ (18ـ سـبـتمـبرـ/ـ أـيـلـولـ)ـ إـثرـ الغـارـاتـ الـإـسـرـائـيلـيـةـ عـلـىـ مـوـاقـعـ لـلـجـيـشـ السـورـيـ (بعـدـ يـوـمـ مـنـ اـجـتمـاعـ ثـنـائـيـ روـسـيـ تـرـكـيـ أـبـعـدـتـ فـيـ إـيرـانـ)، اـدـعـتـ إـسـرـائـيلـ أـنـهـ مـخـزـنـ لـأـجـهـزةـ إـيرـانـيـةـ مـعـدـةـ لـنـقـلـهـ إـلـىـ لـبـنـانـ، تـسـهـمـ فـيـ طـوـيـرـ مـسـتـوـيـ الدـقـةـ لـدـىـ حـزـبـ اللهـ وـفـيـلـقـ الـقـدـسـ، مـاـ تـسـبـبـ فـيـ إـطـلاقـ الدـفـاعـاتـ السـورـيـةـ صـوـارـيـخـهاـ "ـخـطاـ"ـ، وـالـتـيـ أـسـقـطـتـ الطـائـرـةـ الـرـوـسـيـةـ، مـاـ دـفـعـ مـوسـكوـ إـلـىـ تـحـمـيلـ إـسـرـائـيلـ مـسـؤـلـيـةـ الـحـادـثـةـ وـمـقـتـلـ 15ـ جـنـديـاـ روـسـيـاـ، حـفـاظـاـ عـلـىـ شـكـلـ عـلـاقـاتـهاـ مـعـ النـظـامـ السـورـيـ أـمـامـ الشـعـبـ روـسـيـ، وـحتـىـ لـاـ يـسـتـعـجـلـهـاـ بـالـانتـقامـ لـقتـلـاهـ مـنـ جـهـةـ، وـلـأـنـ الـأـولـويـةـ لـدـيـهاـ لـعـقدـ صـفـقةـ مـعـ إـسـرـائـيلـ تـمـنـحـهاـ مـهـلـةـ "ـاسـتـراـحـةـ مـحـارـبـ"ـ لـتـرـتـيـبـ أـورـاقـهاـ مـعـ إـيرـانـ، وـمـحـاـصـرـتـهاـ لـإـخـرـاجـهاـ طـوـاعـيـةـ مـنـ سـورـيـةـ، بـمـاـ بـيـعـدـ شـبـعـ فـكـ الـارـتـيـاطـ مـعـهاـ قـسـرـيـاـ .

ثـانـيـهـماـ، مـاـ بـعـدـ اـنـتـفاـقـ (ـبـوتـينــ أـرـدـوـغـانـ)ـ فـيـ سـوـتـشـيـ فـيـ 17ـ سـبـتمـبرـ/ـ أـيـلـولـ 2018ـ، الـخـاصـ بـالـمـحـافـظـةـ عـلـىـ مـنـطـقـةـ إـدـلـبـ ضـمـنـ اـنـتـفاـقـ خـفـضـ التـصـعيدـ، وـإـحـدـاثـ مـنـزـوـعـةـ السـلاـحـ، فـيـ مـقـابـلـ فـتـحـ الـطـرـيقـيـنـ السـرـيـعـيـنـ الـلـذـيـنـ يـرـبـطـانـ جـهـاتـ الـشـرـقـ بـالـغـربـ، وـالـشـمـالـ بـالـجـنـوبـ بـعـدـ إـدـلـبـ، وـكـذـلـكـ يـرـبـطـانـ حـلـبـ بـالـسـاحـلـ السـورـيـ قـبـلـ نـهـاـيـةـ الـعـامـ الـحـالـيـ، وـتـسـلـيمـ تـرـكـياـ مـهـمـةـ اـنـتـزـاعـ الـمـنـاطـقـ مـنـ تـحـ سـيـطـرـةـ الـقـوىـ الـمـتـطـرـفةـ الـتـيـ تـتـزـعـمـهـاـ جـبـهـةـ النـصـرـةـ فـيـ إـدـلـبـ .

وـعـلـىـ ذـلـكـ، حـسـمـتـ مـعـرـكـةـ حـلـبـ الـصـرـاعـ الـعـسـكـريـ شـمـالـاًـ لـمـصـلـحـةـ التـسـوـيـاتـ، عـبـرـ مـسـارـ أـسـتـانـةـ الـذـيـ تـأـسـسـ بـعـدـ الـمـصـالـحـةـ الـتـرـكـيـةـ الـرـوـسـيـةـ، عـلـىـ خـلـفـيـةـ إـسـقـاطـ الدـفـاعـاتـ الـجـوـيـةـ الـتـرـكـيـةـ الـطـائـرـةـ الـرـوـسـيـةـ 2015ـ، وـبـدـأـتـ أـولـىـ جـوـلـاتـ بـعـدـ سـقـوطـ حـلـبـ فـيـ يـدـ الـقـوـاتـ الـرـوـسـيـةـ بـعـدـ مـعرـكـةـ شـبـهـ أـحـارـيـةـ، أـخـذـتـ فـيـهاـ تـرـكـياـ دورـ مـتـفـرـجـ خـلـالـ الـمـعـرـكـةـ، وـالـوـسـيـطـ لـاحـقاـ لـتـحـقـيقـ تـسـوـيـاتـ مـيـدانـيـةـ، وـلـعـبـ دورـ فـاعـلـ فـيـ تـغـيـيرـ مـوـاقـعـ الـفـصـائـلـ السـورـيـةـ (ـالـمـعـارـضـةـ الـمـسـلـحـةـ)، مـاـ مـكـنـ مـوسـكوـ مـنـ التـلـاعـبـ فـيـ الـمـلـفـ السـيـاسـيـ، عـبـرـ جـوـلـاتـ أـسـتـانـةـ الـتـيـ تـصـدـرـتـ الـمـشـهـدـ بـرـعـاءـيـةـ ثـلـاثـيـةـ روـسـيـةــ تـرـكـيـةــ إـيرـانـيـةـ، وـجـاءـتـ بـدـيـالـاـ لـجـوـلـاتـ جـنـيفـ الـأـمـمـيـةـ الـتـيـ بـقـيـتـ تـرـاـوـحـ فـيـ مـكـانـهاـ، مـنـ دـونـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ إـنجـازـ أـيـ مـنـ أـوـلـويـاتـهاـ الـتـيـ مـنـحـتـهاـ لـهـاـ الـقـرـاراتـ

وذلك يعني أن أنقرة كانت بيضة القبان التي استثمرتها موسكو، عسكرياً لإنهاء الفصائل المسلحة، وسياسياً لابتداع مسارات تفاوضية تعطيلية لمسار جنيف، وفي الوقت نفسه الذي لم تستطع واشنطن الحفاظ على تركيا حليفاً قوياً لها شمالاً، إلا أنها، في الوقت نفسه أيضاً، لم تتمكن من القطيعة معها، أو الابتعاد عنها كلياً، ما جعل تركيا الثالث المكمل للمعادلتين الروسية مع إيران والأميركية مع أوروبا، أي أنها لم تحسم خياراتها وموقعها، بسبب أنها تريد دوراً أكبر مما أرادته لها موسكو في الملفين، السياسي والاقتصادي، كما أنها ترغب بعلاقاتٍ أوثق مما هو عليه واقع الحال مع واشنطن، وخصوصاً ما يتعلق بملفيها، الأمني المفتوح على ملف الكرد شمالاً، والاقتصادي الذي تنوء به حكومة أردوغان في ظل الخلافات البينية الأميركية - التركية، كما لا يمكن لإدارة ترامب تجاهل مصلحتها في استعادة التقارب مع تركيا، لضمان وجود آمن لمصالحها في الشمال السوري .

ومن خلال ذلك، يمكن فهم المتغيرات الميدانية الحالية شمالاً، والتي تسمح لتركيا بإعادة توازن الرعب مع القوات الكردية (الحليفة لأميركا)، عبر تهديداتٍ بفتح معركة وجودية معها شرق الفرات، في وقتٍ تظهر فيه الدوريات الأميركية الكردية المشتركة، وتعود أخبار وصول القوات العربية المشتركة (السعودية - الإماراتية) إلى مناطق التماس الكردية التركية للتداول من جديد، تأكيداً على استمرار التحالف بينهم، ولكن بما لا يتعارض مع سياسة الصمت على التهديدات التركية التي تعني المناطق المسيطر عليها "كردياً"، وغير الآهلة عملياً بالوجود الأميركي في شرق تل أبيض وغريها.

المصادر:

العربي الجديد